فولتـــير المؤرخ

للأستاذ زكى نجيب محمود

لئن التاريخ قروناً يتلوها قرون ، وهو لا يحب للشعوب حساباً ، ولا يعنى بحياة الانسان قليلا ولا كثيراً ، إنما ملئت سطوره وأفعمت صفحاته بذكر الملوك والأمراء . فكان تاريخ الأمة هو تاريخ ملوكها . أما سائر الطبقات ، التى هى فى الواقع لحمة الحياة وسداها ، هى الانسانية بأسرها ، هى مبعث القوى والنشاط جميعاً ، فكانت لا تظفر من المؤرخ بسطر واحد فضلا عن صفحة أو كتاب

بقيت الحال كذلك ما بقيت الشعوب بعيدة عن دوائر السيطرة والحكم ، ثم ما كادت تنهض أوروبا نهضة الأحياء ، ويستيقظ الناس من ذلك السبات العميق ، وتبدأ الديمقراطية الصحيحة تنشر ألويتها ، وتجد سبيلها إلى صميم القلوب ، حتى انقلب ذلك الوضع الخاطىء . واتخذ شكله المستقيم . وأصبحت الشعوب وحياتها عند التاريخ كل شىء .

ولكل انقلاب رسوله الأمين ، ورسول ذلك الانقلاب فى كتابة التاريخ هو فولتير . الذى يمثل فى شخصه حلقة الإتصال بين العهدين ، وجسر التطور بين المنهجين .

كان فولتير كثير القراءة والاطلاع إلى حد النهم ، وكلما تقدمت به السن ازداد فى ذلك امعاناً وادماناً . حتى احتوى فى نفسه شطراً عظيما من عصارات الأذهان البشرية التى سبقته إلى الوجود . فلم يسعه أمام ذلك الانتاج العقلى الغزير ، الا أن يكبر العقل الانسانى الى درجة التقديس . وقد أوحى اليه ذلك الاكبار أن يجرد قلمه للارتفاع بمكانته الى أعلى عليين . فأخذت تلك النزعة العبقرية تدبج الفصول التى تظهر فيها عظمة العقل ظهورا واضحاً لا يخطئه النظر . ثم تطورت عنده تلك النزعة فولدت فى نفسه عنصراً جديداً ، هو حب الانسانية والفناء من أجلها ، فأخذ يسمو بها بمقدار ما يصب غضبه وتقمته على أيدى الجهالة السوداء التى اعترضت سبيل تقدمها ، وكانت عثرات فى طريقها . هذا التقديس للعقل وللانسانية ، وهذا السخط الذى أراد أن يسحق به عوامل الجمود على اختلاف ألوانها ، كان أول عنصر جديد أدخله فولتير فى كتابة التاريخ .

ونحن اذا تتبعنا مؤلفاته التاريخية ، التى كتبها فى مراحل عمره المختلفة ، أدركنا على الفور تدرج تلك النزعة فى نفسه تدرجاً أدى بها الى تلك الخاتمة التى ذكرنا .

كانت باكورة مؤلفاته التاريخية « حياة شارل الثانى عشر » الذى كتبه ولم يزل يرسف فى أغلال التقاليد ، التى أملت عليه مثله الأعلى ، فأخرج كتابه للناس آية فى تمجيد شارل ، وأكليلا من الزهر يتوج به هامة ذلك الملك ، الذى سما به الى مرتبة رفيعة لا يدانيها من البشر الا الأقلون . وكل عبقريته أنه نثر الدماء وبعثر الأشلاء !! وأنه خاض فى أوروبا من الشمال الى الجنوب ، فاحتواها فى قبضته من تركيا الى السويد !! ولكن نفس فولتير لم تضطرب فيها عاطفة واحدة نحو ذلك الشعب الذى نسج حول مليكه تلك العظمة الحربية تحيوط من أرواحه وما ملكت أيديه ، كلا ولم يحب حساباً لتلك الشعوب التى داسها شارل تحت أقدامه ، وأذل أعناقها لتخلى أمامه الطريق !

يسجل ذلك الكتاب أولى مراحل فولتير الفكرية ، ولكنه لم يكد يفرغ من كتابته ويذيعه فى الناس ، حتى اتجه ببصائره الى دراسة العلوم الطبيعية والرياضية : الى دراسة ما اكتشفه نيوتن وما ارتآه لوك . وهنا آمن بعظمة العقل الانسانى ايمانا لا تزعزعه الريب والشكوك ، وما هى الا أن عاد الى ميدان التاريخ يجول فيه ويصول ، ويبحثه فى ضوء ادراكه الجديد وله المأخوذ بجلال الانسان . فأخذ يعالجه بأسلوب لم يعهده التاريخ من قبل ، بعيد كل البعد عن الطريق التى انتهجها فى كتابه عن شارل الثانى عشر .

بهذه النزعة الناشئة . وفى هذا الضوء الجديد . نشر مؤلفه المشهور عن لويس الرابع عشر ، الذى ان قرأته فلن تتجاوز ورقات قليلة ، حتى تلمس هذا الأسلوب التاريخى الجديد ، وتدرك المدى البعيد الذى انتقلت اليه عقليته . فى كتابة التاريخ ، فبينما هو يسرد عليك فى كتابه الأول قصة واحد من الملوك ، تراه يصور فى كتابه الثانى عصرا بكل ما احتوى من ضروب الحياة . بل تستطيع ألا تحشم نفسك مؤونة القراءة لتبين هذا الفرق بين الكتابين ، ويكفى أن تلقى نظرة عجلى على عنوانيهما لتدرك ماتناول وجهة نظره من تطور وانقلاب ؛ فعنوان الكتاب الأول « تاريخ شارل الثانى عشر » وعنوان الثانى « عصر لويس الرابع عشر » . فى كتاب شارل أخذ يسرد فى تفصيل وتطويل ماطرأ على حياة ذلك الملك من أحداث . وما كان يطبع شخصيته من ضروب المميزات والفضائل ، أما فى هذا الكتاب الأخير ، فقد تتبع الشعب فى نزعاته وميوله وحركاته ، وقد ذكر فى مقدمته أنه . « لن يصف حياة رجل واحد ، بل سيعنى بأحوال الشعب جميعاً » فبينما تراه يلم ألماما

سريعا بأخبار الحروب ، تراه يذكر فى اطناب نواحى الحياة الأخرى التى لم تحظ قبل فولتير بصفحة واحدة من صفحات التاريخ فقد عقد فصلا للتجارة والحكومة الداخلية ، وآخر للحالة المالية ، وثالثا لتاريخ العلوم . كما اختص الفنون الجميلة بفصول ثلاث . وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن النزاع الدينى لا يستحق من العناية الا القليل . الا أنه أفسح لأخبار الكنيسة فى عصر لويس الرابع عشر من كتابه مكانا واسعا . لأنه لم يشك فى أنها لعبت دورا خطيرا فى شئون الحياة ، التى أراد ان يصورها فى مؤلفه هذا تصويرا دقيقا.

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هذا الكتاب ، وان يكن خطوة واسعة وانقلابا خطيرا فى دراسة التاريخ ، الا أنه لم يخل من شوائب الماضى اذ أطال فولتير - فى غير ما موجب للتطويل - فى تفصيل حياة لويس الرابع عشر نفسه ، ومما كان يتقلب فيه من ضروب اللهو والعبث والمجون . ثم حاول بعد ذلك أن يقيم الدليل على سمو مكانته وعظمة مجده ، وان يدفع حراب النقد التى كانت تصوب الى اسمه من كل حدب وصوب .

كان ذلك الكتاب اذن وصلة التطور بين عهدين ، لأنه ثار على القديم من ناحية ، وتعلق بأسبابه من ناحية أخرى ، ثم ما كادت تنطوى سنوات أربع ، حتى طلع على العالم بسفره الجليل فى أخلاق الشعوب ، الذى يعتبر بحق اسمى ما انتجه العقل الانسانى فى القرن الثامن عشر .

لم يعن فولتير فى هذا الكتاب كثيرا بدسائس البلاط ، وتتابع الوزارات ، وما أصاب الملوك من سعود ونحوس ، ولكنه حاول أن يترسم آثار الانسانية فى سيرها وتقدمها مرحلة بعد مرحلة ، فهو يقول فيه « أريد أن أكتب تاريخا للمجتمع الانسانى ، غير معنى بما نشب فيه من حروب ، وأن أبين فى جلاء وبوضوح كيف كان يعيش الأفراد فى حياتهم العائلية الخاصة ، وما هى الفنون المختلفة التى كانوا يعالجونها ، ذلك لأن الموضوع الذى أنا بصدده . هو تاريخ ، العقل البشرى . فلن أسرد الحوادث التافهة الجفيرة ، ولن أعنى باخبار الأمراء والعظماء وما قام بينهم وبين ملوك فرنسا من قتال وعراك . ولكنى سأدرس المراحل التى اجتازها الانسان حتى انتقل من الهمجية الى المدنية »

وهكذا ضرب فولتير مثلا أعلى للتاريخ كيف يكون . فاهتدى بهديه المؤرخون من بعده . وأخذوا يدرسون ما هو جدير بالدرس ويسقطون من حسابهم تلك التفصيلات الجافة المملة التى لا تتصل بالحياة الا بسبب واه ضئيل ، والتى غصت بها مجلدات التاريخ من قبل .

لم يكن فولتير فى تلك الروح الجديدة الا مرآة صافية ينعكس فيها ما تضطرب به نفوس القوم فى القرن الثامن عشر ، لذلك لم يكن هو الكاتب الوحيد الذى اختط لنفسه هذا النهج ، بل عاصره مونتسكيو وبيرجوا ، اللذان نسجا على هذا المنوال فى كتابة التاريخ .

وهكذا بدأ المؤرخون يحولون موضوع الدراسة من أشخاص الملوك والأمراء الى حياة الشعوب وما يرتبط بها من مصالح . فأخذوا يتفحصون الآراء العتيقة البالية ويبذرون فى النفوس بذور القلق والاضطراب . ثم يحتقرون تلك الشخصيات . التى كانت تملأ عظمتها النفوس من قبل . والتى كانت أقرب الى الآلهة منها الى البشر

وبذلك انقلب التاريخ معولا لهدم الملكية والارستقراطية بعد ان كان أداة قوية للدعاية لسلطانهم . وأصبح فيثارة تنبعث منها نغمات الديمقراطية . وتقديس الانسان ، وتمجيد الأبدى العاملة ؛ ثم أخذت تلك الألحان الجديدة تدوى أصداؤها فى جنبات أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، حتى انتهت بالثورة الكبرى ، التى زلزلت العروش وهدمت قوائم الارستقراطية هدما . ولعل ما حدا بفولتير الى انتهاج هذا الأسلوب فى كتابة التاريخ . هو ميله الى التعميم فى دراسته للأشياء . فهو لا يطمئن للبحث فى الجزئيات . الا اذا كان ذلك على سبيل الاستشهاد وضرب الأمثلة التى تؤيد قاعدة عامة ومبدأ شاملا . لهذا تراه قد أقام التاريخ على أساس المراحل التى اجتازتها الانسانية عامة فى تطورها ؛ أما الملوك ومن اليهم فهم بمثابة الجزئيات من تلك الكتلة الانسانية ؛ فلا يجوز دراستها لذاتها . ولم تقتصر تلك الروح التعميمية على كتابة التاريخ . بل اشتملت رواياته أيضا . فهو لم يحاول أن يصور فيها عواطف أفراد وأخلاق آحاد . انما قصد الى ابراز روح العصر الذى وقعت حوادث الرواية فيه .

كان من النتائج الطبيعية لهذه السبل التى سلكها فولتير فى كتابة التاريخ بناء على أكبار العقل الانسانى ، وأجلال صنوف الشعب التى هى نسيج الحياة الاجتماعية ومادتها . أنه كان يزهو بعاصره اذا قاسه الى الماضى ، كما كان قوى الايمان بمستقبل الانسانية ، ما دامت جادة فى طريقها لا تلوى على شىء . أو على الأصح لا يلويها عن تلك الجادة المستقيمة شىء . لذلك كان يضيق صدرا بمن عاصره من الكتاب . الذين كانوا اذا أرسلوا بصرهم الى المستقبل . ارتد حسيرا اليهم . واذا أجالوا الطرف فى حاضرهم تملهم اليأس والقنوط : فكانوا يولون وجوههم الى الوراء . يستعيدون صورة الماضى . التى كان يخيل اليهم أنها أقرب الى الخير والكمال . والشعوب اذا دب فيها دبيب العجز والقعود . التفتت فى الماضى مثلها الأعلى . أما اذا كانت فتية قوية . فهى تنظر

الى المستقبل يحدوها الأمل والرجاء . وليسمح لى القراء أن استطرد قليلا فأقول انى لا أطمئن الى هذه اللوعة التى يتردد أنينها الحين بعد الحين ، أسفا وحسرة على « السلف الصالح » الذين غيبهم التاريخ فى جوفه العميق ، سواء أكان هذا السلف من المصريين القدماء أم من العرب . أنما يجب أن نذكر اولئك وهؤلاء كما يذكر الشاب القوى طفولته الضعيفة العاثرة ، لا كما يذكر الشيخ الهدم شبابه الفتى الضائع .

أعود فأقول أن فولتير قد ضاق صدرا بتلك الطائفة من الكتاب ، التى كانت تنشد مثلها الأعلى فى الحياة الماضية ، فلم يتردد فى أن يذيع فى الناس صورة ذلك الماضى المظلم الغشوم ، وأن يطلع أمته على حقيقة العصور الوسطى التى كانت تتخبط فى دجور الجهل والفوضى ، حيث كانت أشنع الجرائم ترتكب بغير قصاص ، وأشراف الاقطاع يبطشون بالناس بطش العزيز المقتدر بغير حساب ؛ وبذلك عرف فولتير كيف يهدم تلك الفئة الضالة المضللة ، وعرف كيف يمحو هذا الاعجاب السخيف المصطنع بالماضى البالى العتيق ، كما عرف كيف يبسط للناس فى الأمل الوارف الظلال ؛ وكان المعول الذى اتخذه لتحطيم ذلك جميعا ، هو سخره اللاذع وتهكمه الفارس ، بهؤلاء الذين يعيشون فى الحاضر بأجسادهم ، وفى الماضى بنفوسهم وعقولهم (فليسمع الجامدون ! !) وقد أخذ عليه بعض النقاد . أنه انما لجأ الى ذلك السخر عندما أعوزه المنطق الذى يدعم به ما يقول ! فأين أذن من هو أقوى من فولتير حجة وأسد منطقا ؟ ! ولسنا نشك فى أن من المنطق ألا يناقش تلك الطائفة بالمنطق ! والا لحدثنى بربك كيف تجد الحجة العقلية سبيلا الى نفوس هؤلاء ، الذين نبذوا الجديد لأنه جديد ، ويجدوا القديم لأنه قديم ، مع أن العكس أولى وأقوم ، لأنه أقرب الى سنة الحياة ؟ !

لله در فولتير فى تلك السخرية التى صادفت أهلها وأصابت مرماها ، فقد استطاع أن يسحق رجال الدين سحقا ، وأن يسقط أعلام الفكر فى عصره ، الذين أرادوا أن يعودوا بالانسانية أدراجها الى الماضى ، وعرف كيف يزلزل عروش هؤلاء وأولئك ـ وكانت مكينة حينئذ ـ زلزالا عنيفا ، بأن احتقرهم وازدراهم ، تارة بالاهمال والحذف ، وطورا بتصويرهم فى كتاباته فى صور تبعث القراء على الضحك

نعم أستطاع فولتير أن يقوض سلطان الكنيسة المخيف ، وأن يهزأ بالدراسات الكلاسيكية ، التى كانت موضع الاعجاب والتقدير حينا طويلا من الدهر ، ولكنه لم يكن هداما وكفى ، بل أقام على تلك الانقاض بناء قويا من الأمل فى المستقبل بعد اليأس من الاصلاح ، ومن العناية بالشعوب دون الملوك ، بعد أن كانت تلك الشعوب فى زوايا الاهمال والنسيان وقد استعان على ذلك جميعا بقوة المنطق تارة ، وبالسخرية اللاذعة طورا ، حتى كتب له النجاح والتوفيق .

هكذا كان فولتير من رسل الديمقراطية فى الطليعة ، ومن أبطال الثورة الفرنسية فى المقدمة . لأنه حطم ذلك التقديس الالهى الذى كان يحيط بالملوك ورجال الدين ، ثم رفع الشعب حتى نبوأ تلك المكانة السامية ، فلوح له بمستقبل مزدهر هانىء سعيد ، فلعبت تلك الأمانى الحلوة بأفئدة القوم ، وضاقوا بحياتهم صدرا ، وبدأ القلق يساور النفوس تعجلا لذلك المستقبل الموعود ، فأخذ الشعب يتحفز ويتوثب ، الى أن هب فى الثورة الكبرى ، وحطم ما كان يرسف فيه من أصفاد وأغلال .

لم يعد لويس السادس عشر الحقيقة حين قال ، وقد وقعت عينه فى السجن على كتب فولتير وروسو : « لقد أنقض هذان الرجلان ظهر فرنسا » ويقصد بذلك أسرة البوربون .

ذلك هو فولتير ، الذى لم يكن واحداً فى عداد الأفراد ، بل احتوى فى شخصه عصراً بكل مافيه من عقل وروح ، حتى قال عنه فكتور هوجو : « اذا ذكرت فولتير ، فقد ذكرت القرن الثامن عشر » .

وهذه هى آثار ما كتبه من أدب وتاريخ ، واضحة فى النهزة الديمقراطية التى تجتوى الأرض من أقصاها الى أقصاها ، فحق له أن يقول : « ان الكتب تحكم العالم » .

زكى نجيب محمود

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

نقله إلى العربية

أحمد حسن الزيات

وهو قصة واقعية من روائع الأدب الألمانى تصور طهارة الحب وكرم الايثار وشرف التضحية باسلوب رائع قوى وتحليل بارع دقيق

يطلب من المكاتب الشهيرة ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة رقم ٣٩ والثمن ١٥ قرشا